جامعة الطائف

التركيب النعتي في الفاصلة القرآنية
دراسة للقيم الصوتية والوظائف الدلالية

د . عصام عبد المنصف أبو زيد
أستاذ مساعد - كلية الآداب
جامعة الطائف

مجلة جامعة الطائف - الآداب والتربية (اللغة العربية وآدابها)
المجلد الثاني - العدد الخامس - جمادى الآخرة ١٤٣٢هـ - مايو ٢٠١١م

الملخص

يتناول هذا البحث دراسة التركيب النعتي في الفاصلة القرآنية دراسة صوتية ودلالية، وجاء الاختيار للنعت في هذا الموقع من النص القرآني؛ لأنه وظيفة نحوية متنوعة، شَغَلَتْ ما يناهز خُمْسَ الفواصل القرآنية كلها، ومن ثَمَّ جاء ثريًّا بالإيحاءات والدلالات التي الْتَصَقَتْ بأصواته، وجَعَلَتْهُ متناسبًا في موضعه مع صورته الذهنية من وَجْهٍ، ومع دلالته السمعية من وَجْهٍ آخر.

وقد أُقيمَ هذا البحث على محورين رئيسين: أما الأول، فهو تَتَبُّعُ القِيَم الصوتية للتركيب النعتي في الفاصلة القرآنية، والوقوف على أهم الإيحاءات التي انبثقت من محاكاة النعت بأصواته للمعنى؛ فقد جاءت المفردات النعتية في الفواصل القرآنية مصوِّرةً لمعناها بجرس حروفها مع تضافرها بالسياق الواردة فيه.

وأما الثاني، فهو الوقوف على الوظائف الدلالية للتركيب النعتي في الفاصلة القرآنية، فقد أَسْهَمَ النعت بصورة واضحة في تشكيل البنية الإيقاعية للفاصلة القرآنية، وكان له الدَّوْرُ الفَعَّالُ في تحقيق التماسك النَّصِّيِّ بين فواصل السورة الواحدة من خلال تَمَرْكُزِه في هذا الموضع من النص القرآني، كما أدَّى بدوره إلى امتداد الجملة وإطالة بنائها وفق ما يتطلبه السياق.

مقدمة

لا يزال القرآن الكريم محرابا يؤمه الدارسون جادِّين في سبر أغواره، واكتناه أسرار تراكيبه؛ فهو المعجزة الخالدة التي عجزت عنها عقول الفصحاء وألسنة البلغاء، ولا تزال الفاصلة القرآنية وردا موفورا للدراسة والبحث؛ فهي رأس كل آية، أو هي المقطع الأخير من الآية، لأنها قد تكون كلمة مفردة، أو جملة تامة، أو شبه جملة. وكان اختيارها في هذا الموضع على وجه من الدقة محكم من ناحية أصواتها وبنائها ومراعاتها لمضمون آيتها؛ ومن ثم كانت من ضروب الإعجاز البلاغي واللغوي في القرآن الكريم.

وقد شُغِلَت الفاصلة القرآنية بوظائف نحوية متعددة، وكان النعت أهم هذه الوظائف على الإطلاق؛ فجاء غنيًّا بالقيم الصوتية المستمدة منه وذلك من خلال محاكاته بأصواته للمعنى محاكاة طبيعية تنبثق منها الإيحاءات والدلالات، وفي الوقت نفسه جاء متعدد المعاني والوظائف الدلالية من خلال تمركزه في هذا الموقع من النص القرآني. وكذلك جاء هذا البحث في مبحثين رئيسيين، أولهما: القيم الصوتية للتركيب النعتي في الفاصلة القرآنية.

ثانيهما: الوظائف الدلالية للتركيب النعتي في الفاصلة القرآنية.

المبحث الأول

القيم الصوتية للتركيب النعتي في الفاصلة القرآنية.

إن وضع الحرف بصفاته - من حيث الجهر والهمس والشدة والرخاوة - من الفاصلة القرآنية معجز في حدِّ ذاته؛ فهو رابط لها بدلالتها، لتكون هي رابطة بأصواتها لمضمون آيتها، وهذا من أسرار التماسك المعجز في الفاصلة القرآنية بين أصواتها ومعانيها .

أولا: الحروف التي جاءت رويًّا للنعت في الفاصلة القرآنية.

بُنِي النعت في فواصل القرآن الكريم على أغلب حروف الهجاء بنسب متفاوتة بين القلة والكثرة باستثناء (الهمزة، والحاء، والخاء، والكاف)، حيث لم ترد الفاصلة النعتية على أيٍّ من هذه الحروف، وفيما يلي بيان بالحروف التي جاءت رويًّا للنعت في الفواصل القرآنية.

رَوِيّ النعت	عدد مرات استعماله	نسبته المئوية
الباء	٤٠	٣,٢٥٪
التاء	٢	٠,١٦٪
الثاء	٢	٠,١٦٪
الجيم	٧	٠,٥٧٪
الدال	٧٥	٦,١٠٪
الذال	٢	٠,١٦٪
الراء	١١٩	٩,٦٩٪
الزاي	٣	٠,٢٤٪
السين	٢	٠,١٦٪
الشين	١	٠,٠٨٪
الصاد	١	٠,٠٨و٪
الضاد	٣	٠,٢٤٪
الطاء	٢	٠,١٦٪
الظاء	٩	٠,٧٣٪
العين	٥	٠,٤٠٪
الغين	١	٠,٠٨٪
الفاء	٦	٠,٤٨٪
القاف	١١	٠,٨٩٪
اللام	٢٤	١,٩٥٪
الميم	٣٠٤	٢٤,٩٪
النون	٤٩١	٤٠,٣٩٪
الهاء	٥٠	٤,٠٧٪
الياء	١٦	١,٣٪
الألف	٤٥	٣,٦٦٪

من خلال البيان السابق يتضح ما يأتي :

١- ورد التركيب النعتي في الفاصلة القرآنية (١٢٢٨) مرة، وإذا كان عدد آيات القرآن الكريم ٦٢٣٦ آية فإن نسبة التركيب النعتي من عدد الفواصل القرآنية ١٩،٧٪ أي ما يناهز خُمُس الفواصل الكلية، وهي نسبة ليست قليلة، تفوق نسب غيرها من الوظائف النحوية الأخرى، ولذلك فهي تسترعي الوقوف عندها والتأمل فيها، حيث يتبين من خلالها أهمية التركيب النعتي في الفاصلة القرآنية، ودوره في بنائها بأنواعه المتعددة: المفرد، والجملة، وشبه الجملة.

٢- بُنِيَت الفاصلة النعتية على أربعة وعشرين حرفا من حروف الهجاء باستثناء (الهمزة، والحاء، والخاء، والكاف)؛ وذلك لأن القرآن الكريم استعمل في فواصله حروفا ذات وقع نغمي خاص تعتمد في ذلك على الوضوح السمعي؛ فالأصوات الإنسانية ليست على السواء في نسبة الوضوح السمعي، فبعضها أوضح من بعض؛[١] ومن ثَمَّ لم يُبن النعت في الفاصلة القرآنية على أغلب حروف الحلق، حيث كانت أقل استعمالا من غيرها في الفاصلة القرآنية، ومردُّ ذلك إلى سهولة النطق والوضوح السمعي؛ فالهمزة صوت شديد لا هو بالمجهور ولا بالمهموس، يحتاج النطق به إلى جهد عضلي قد يزيد على ما يحتاج إليه أي صوت آخر مما يجعل الهمزة أشق الأصوات،[٢] فضلا عن أنه لا تحدث أثناء النطق به ذبذبةُ الوترين الصوتيين اللذين «يهتزان اهتزازا منتظما، ويحدثان صوتا موسيقيا تختلف درجته حسب عدد الهزات أو الذبذبات في الثانية، كما تختلف شدته أو علوّه حسب سعة الاهتزازة الواحدة».[٣] وهذا شأن (الحاء، والخاء، والكاف)، فهي أصوات لا يتذبذب معها الوتران الصوتيان أثناء النطق بها؛ مما يجعلها بعيدة عن الوضوح السمعي ،ومن ثم لم تستعمل رويا للفاصلة النعتية لصعوبتها وصعوبة الوقف عليها.

٣ - لم ترد الفاصلة النعتية على كل من (الشين، والصاد، والغين) إلا مرة واحدة بنسبة ٠٨،٪ من مجموع الفواصل النعتية، وهي النسبة الأقل إذا ما قُورنت بِنِسَب غيرها من الحروف التي جاءت رويًّا للفاصلة النعتية، وتفسير ذلك أنَّ (الشين) و(الصاد) كلاهما صوت رخو، مهموس لا يتذبذب الوتران الصوتيان أثناء النطق بهما.[٤] أما (الغين) فهو صوت رخو، وهو النظير المجهور لحرف (الخاء) حيث لا يتذبذب الوتران الصوتيان أثناء النطق بهما .

٤- إنَّ النعت وظيفة نحوية موضوعة للتوضيح والإبانة، أو التخصيص والتحديد فهو « التابع المكمل لمتبوعه ببيان صفة من صفاته أو من صفات ما تعلق به «،[٥] وقد روعي معنى النعت في اعتماد الفاصلة القرآنية عليه، فضلا عن مراعاة الحرف الذي بُني عليه أو ما يُمكن تسميته بالرويِّ؛ إذ جاء النعت في أغلب مواضعه على حروف توافرت فيها صفة الوضوح

السمعي، وهذه طبيعة النظم القرآني، إذ يراعي في توزيع الأصوات وتأليفها ما يناسب المعاني والأغراض .

٥- شَغَلَ حرف (النون) المساحة الكبرى في استيعاب الفاصلة النعتية؛ فقد جاء رويًّا للنعت (٤٩٦) مرة بنسبة ٤٠،٣٩٪ من مجموع الفواصل النعتية، يليه في ذلك حرف (الميم) الذي بُنِيت عليه الفاصلة النعتية (٣٠٦) مرات بنسبة ٢٤،٩٪، والنون والميم صوتان مجهوران متوسطان بين الشدة والرخاوة ،[٦] وهما أهم حروف الترنم في العربية لما يحدثان من ذبذبة للوترين الصوتيين أثناء النطق بهما، ولذلك عدَّهما ابن جني من حروف الذلاقة[٧] التي يعتمد عليها بذلق اللسان- وهو طرفه - مما جعلها أخف الحروف عليه وأكثرها امتزاجا بغيرها .

وقد لوحظ كثرة وقوع حروف المد واللين في الفواصل النعتية المنتهية بحرفي النون والميم، وفي ذلك قيمة موسيقية رفيعة تضفيها هذه الحروف على الفواصل القرآنية عامة والنعتية خاصة، لعلها وجود التمكن من التطريب ؛[٨] فقد حكى سيبويه عن العرب أنهم «إذا ترنموا فإنهم يلحقون الألف والواو والياء ما يُنَوَّن وما لا يُنَوَّن لأنهم أرادوا مدَّ الصوت».[٩] ولم يفُت ابن جني أن يشير إلى قيمة حروف المدِّ واللين في هذا الموضع، فذكر أن ذلك مؤذن بالوقوف ومؤدٍّ «إلى الراحة والسكون، وكلما جاور حرفُ المدِّ الرويَ كان آنس به وأشدَّ إنعاما لمستمعه»[١٠]، وعبَّر في مكان آخر عن قيمة هذه الحروف بقوله: «ولذلك استُعملن في الإرداف والوصل والتأسيس والخروج، وفيهن يجري الصوت للغناء والحداء، والترنيم، والتطويح».[١١] وبهذا يتضح أن ورود النون والميم بعد حروف المد بصورة متواكبة صار سرا صوتيا متجليا في الفواصل النعتية؛ إذ إنهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقا نفسها، كما أنهما من أطول الأصوات الساكنة التي تلي أصوات اللين في الطول الطبيعي، وهذا يناسب الحس الموسيقي والتطريب المستمد منهما .[١٢]

٦- بُنِيَت الفاصلة النعتية في بعض سور القرآن الكريم على حرف واحد كبنائها في الفاتحة، والتغابن، والمطففين على «الميم»، وفي الرعد، والروم على «النون»، وفي النجم، والأعلى، والليل على «الألف المقصورة»، وفي القمر على «الراء»، وفي البينة، والهُمَزة على «الهاء»، مع ملاحظة عدّ الفاصلة المنتهية بالتاء المربوطة (هاء) وذلك بالنظر إلى الوقف عليها؛ لأن مبنى الفواصل القرآنية على الوقف؛ ولهذا ساغ مقابلة المرفوع بالمجرور، والمجرور بالمرفوع، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ مع قوله: ﴿ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾، و ﴿ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾. (الصافات ٩-١١) وقوله تعالى: ﴿ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾. مع قوله: ﴿ وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾.(الرعد ١١- ١٢) .

وبُنِيت في سور أخرى على حرفين كبناء المائدة على حرفي الميم والنون، وكذلك الأنعام،

والأعراف، والتوبة، ويونس، والنحل، والأنبياء، والمؤمنون، والنور، والشعراء، والنمل، والعنكبوت، ويس، والزخرف ،والدخان، والجاثية، والأحقاف، والمجادلة، والحشر، والجمعة، والقلم، والمعارج، والانفطار. وقد رُوعي في ذلك كله تقارب الصفات الصوتية لحرفي الميم والنون، فهما من الصوامت الغناء[١٣] التي يعتمد عليها بطرف اللسان .

وبُنِيت في بعض السور الأخرى على أكثر من حرف كبنائها في سورة النساء على حروف (التاء، والدال، والراء، والضاد، والظاء، والغين، والفاء، واللام، والميم، والنون)، وكذلك في سورة هود على (الباء، والدال، والذال، والراء، والطاء، والظاء، والميم، والنون). وفي هذا التنوع الفريد ما يبعد القارئ أو السامع عن الشعور بالملل الذي قد ينتج من التوحد، ويجعلهما يشعران بلذة جديدة في الانتقال من رويٍّ إلى آخر «هذا ينقر، وذاك يصفر ،وهذا يخفى، وذاك يظهر، وهذا يهمس وذاك يجهر»،[١٤] إلى غير ذلك على وجه دقيق محكم.

ثانيًا: محاكاة النعت بأصواته للمعنى في الفاصلة القرآنية .

إنَّ المتأمل للنعت في فواصل القرآن الكريم يجد ألوانا من الدلالات والإيحاءات تنبثق من خلال محاكاة النعت بأصواته للمعنى محاكاة صوتية طبيعية، بحيث توحي أصوات المفردات النعتية بمعناها الذي رُصِد لها في المعجم، فيلتقي الجرس الصوتي بالمعنى المعجمي في سياق محدد؛ فتتحدَّر منها جميعا الدلالات والإيحاءات بشكل لا يخفى على القارئ المتأني؛ مما يجعل النعت في موضعه من الفاصلة القرآنية متناسبا مع صورته الذهنية من وجه، ومع دلالته السمعية من وجه آخر.

ومن هذا المنطلق جعل الرافعي الكلمة ثلاثة أصوات: الأول، صوت النفس، وهو الصوت الموسيقي الذي يكون من تأليف حروف الكلمة ومخارجها وحركاتها، والثاني: صوت العقل، وهو الصوت المعنوي الذي يكون من لطائف التركيب في جملة الكلام، أي الذي يختص بالمعنى المعجمي للكلمة وفقا لما يقتضيه السياق الواردة فيه، والثالث: صوت الحسّ، وهو أبلغهن شأنا، ولا يكون إلا من دقة التصور المعنوي والإبداع في تلوين الخطاب، أي لا يكون إلا باجتماع صوت النفس وصوت العقل معا. وعلى مقدار ما يكون في الكلام البليغ من هذا الصوت الأخير يكون فيه من روح البلاغة[١٥].

وقد تنبَّه اللغويون العرب - قديما وحديثا - إلى هذه الظاهرة، وذهب ابن جني في ذلك مذهبا فريدا، يربط بين الصوت والمعنى في أكثر من موضع، وعقد لذلك بابا في خصائصه سماه «باب إمساس الألفاظ أشباه المعاني»، قال فيه: «فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها

من الأحداث فبابٌ عظيم واسع، ونَهْج مُتْلَئِبّ عند عارفيه مأموم. وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبَّر بها عنها،... من ذلك قولهم: خَضِم، وقَضِم. فالخَضْم لأكل الرَّطْب؛ كالبِطّيخ والقِثَّاء وما كان نحوهما من المأكول الرطب. والقَضْم للصلْب اليابس؛ نحو قَضِمَت الدابة شعيرها، ونحو ذلك. ...فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب، والقاف لصلابتها لليابس؛ حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث».[١٦]

وهذا الأسلوب كثير في كلام العرب، إذ يتغير المعنى بتغير صوت من أصوات لفظه؛ إذ يستخدم الصوت الأقوى غالبا للدلالة على المعنى الأقوى، والصوت الأضعف للدلالة على المعنى الأضعف. وقد أشار الدكتور إبراهيم أنيس إلى هذا النوع من الدلالة التي تستمد من طبيعة الأصوات والتي يسميها علم اللغة الحديث (الدلالة الصوتية) أو(رمزية الألفاظ) كما سماها (جسبرسن). [١٧]

وجاءت المفردات النعتية في الفواصل القرآنية مصورة لمعناها بجرس حروفها مع تضافرها بالسياق الواردة فيه، إذ إن هذه المفردات النعتية بأصواتها لا تُوظَّف لمحاكاة معانيها في كل موضع؛ لأن ذلك مرهون بالسياق النصي، وذلك على النحو الآتي :

١ - المحاكاة الصوتية بصوت أو أكثر في النعت .

وذلك أن تأتي المفردة النعتية مصورة للمعنى بجرس حروفها من خلال أحد أصواتها أو اختلافها عن مفردة أخرى بصوت واحد أو أكثر من ناحية الصفات والمخارج؛ ولذلك كثيرا ما نرى القرآن يعدل عن مفردة إلى أخرى بحسب حاجة السياق أو الصورة التي تُرسم. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ (الرحمن ٦٦) فقد آثر النص القرآني التعبير بكلمة (نضخ) بدلا من (نضح) وكلاهما كان يعني خروج الماء إلا أنهم جعلوا «الصوت الأقوى للفعل الأقوى والصوت الأضعف للفعل الأضعف»؛[١٨] « فجعلوا الحاء - لرقتها - للماء الضعيف، والخاء - لغلظها - لما هو أقوى منه».[١٩] فكلمة (نضخ) تعني خروج الماء مع فورانه، فقوله تعالى: ﴿ عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ أي: فوَّارتان بالماء ،[٢٠] أما كلمة (نضح) فهي تعني خروج الماء خروجا دون أن يكون نضخا، فالنضخ أكثر من النضح؛ لأن النضح مثل الرشِّ، وهو عند مَنْ فضَّل الجنتين الأوليين - في قوله تعالى: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ (الرحمن ٥٠)- دون الجَرْي، إلا أن هناك مَنْ ذهب إلى تفضيل وصف العينين بالنضخ؛ لأن النضخ فَوَران، والفَوَران جَرْيٌ مع زيادة حُسْنٍ؛ فإن الماء إذا فَارَ وارتفع وقع متناثر القطرات كحبات اللؤلؤ المتناثرة.[٢١]

ومن ذلك أيضا محاكاة صوت (السين) معنى الخفاء والمخافتة والمواراة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴾ (التكوير ١٥-١٦)، وقوله تعالى: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ

ﵟٱلۡخَنَّاسِ ٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِﵞ (الناس ٤-٥) وقديما أشار ابن جني إلى معنى الخفاء والمخافتة التي يحققها صوت السين في موازنته بين (صَعِد وسَعِد) قائلا: «جعلوا الصاد - لأنها أقوى - لما فيه أثر مشاهَد يُرَى، وهو الصعود في الجبل والحائط، ونحو ذلك. وجعلوا السين - لضعفها - لما لا يظهر ولا يُشَاهَد حِسًّا،... فجعلوا الصاد لقوتها مع ما يُشَاهد من الأفعال المعالجة المتجشَّمة، وجعلوا السين لضعفها فيما تعرفه النفس وإن لم تره العين، والدلالة اللفظية أقوى من الدلالة المعنوية».(٢٢) وبالرجوع إلى الآيات السابقة نجد أن الدلالة المعجمية للمفردات النعتية - (الكُنَّس - الخَنَّاس) - تدور حول الخفاء والمخافتة، وقد تآزرت معها بقية المفردات - (الخُنَّس - الوَسْوَاس - يُوَسْوِس - صدور) - في إعطاء هذه الدلالة، فـ (الخُنَّس والخَنَّاس) في أغلب معانيهما يدلان على الانقباض والاستخفاء والمغيب ،(٢٣) أما (الكُنَّس) فهي تدل على الرجوع والمغيب والاستتار كما تَكْنِسُ الظباء في مغارها.(٢٤) وبذلك شكَّلت هذه المفردات المختارة هندسة صوتية قائمة في بنائها على صوت السين - وهو صوت مهموس لثوي احتكاكي لا يستطيع الإنسان أن ينطق به وهو مفتوح الفم - (٢٥) الذي حاكى بجرسه معنى المغيب والاستتار في كلمة (الكُنَّس)، أما في كلمة (الخَنَّاس) فقد أبرز صوت السين بصفاته حالة الهمس الخفي والوسوسة التي يخافت بها أهل الجرائم والمكائد، وما يلقيه الشيطان في روع الإنسان ليزين له بذلك ارتكاب المعاصي ،(٢٦) فضلا عن الدلالة المستمدة من بناء (الخنَّاس)، فهو بناء مبالغة، يدل على تكرار فعل ما سبق والمداومة عليه وقتا بعد وقت .

ومن ذلك أيضا ما ورد في تعبير النص القرآني عن طعام أهل النار وصفاته وذلك في قوله تعالى: ﵟوَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖﵞ (الحاقة ٣٦)، وقوله: ﵟلَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖﵞ (الغاشية ٦)، وقوله: ﵟلَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖﵞ (الواقعة ٥٢) فالنار دركات، والعذاب ألوان، والمعذَّبون طبقات، وعلى قدر الذنوب تقع العقوبات؛ فمنهم مَنْ طعامه الغسلين، ومنهم من طعامه الضريع، ومنهم من طعامه الزقوم، ومنهم من شرابه الحميم، ومنهم من شرابه الصديد.(٢٧) وقد جاءت التراكيب النعتية في فواصل الآيات السابقة - «من غسلين»، «من ضريع»، «من زقوم» - دالة بجرس أصواتها على غرابة طعام أهل النار وبشاعته ومدى التقزز والنفور منه؛ فـ «الغسلين» - كما قال اللغويون - هو ما يجري من الجراح إذا غُسِلت، أو هو الدم والصديد الذي يسيل من لحوم أهل النار،(٢٨) فهو لفظ يوحي بأن هذا الطعام غسالة لشيء آخر، وأنه غير مستساغ بسبب ما في مخرج الغين من التأخر، فضلا عن أن الغين صوت يستعمل ساكنا عند إرادة التقزز.(٢٩)

أما لفظ «ضريع» فإن المتأمل فيه يجد أن الضاد - بانفجارها وجهرها وشدتها - والراء - بتكرار طرق (طرف اللسان حافة الحنك) عند النطق بها - يوحيان بغلظ هذا الطعام وقسوته

وشدته، فكأنما هو شوك متشعب الأطراف، ثم هذا المدّ الذي يزيد من حدَّة هذا الطعام وينتهي بالعين، ذلك الصوت الحلقي الذي ينتهي اللفظ به ويحاكي بجرسه والوقوف عليه وقوف ذلك الطعام في حلوق طاعميه. وعلى كل فهو لفظ يوحي بأصواته بأن في هذا الطعام ذلًّا يؤدي إلى تضَرُّع آكليه إلى الله أن يحفظهم منه؛ فلا هو مُسْمِن ولا مُغْن من جوع، فهو في النهاية لا يساوي بذل الجهد في أكله.[٣٠]

وأما «زَقُّوم» فهو لفظ يوحي بالسقم؛[٣١] للتشابه الكبير بين المادتين: (ز ق م - س ق م)، فضلا عن أن توالي القاف - التي يقرب مخرجها من البلعوم - والميم - التي يقتضي نطقها إقفال الشفتين - يوحي بأن ثمرة هذه الشجرة تستعصي على البلع ويطول استعصاؤها بإيحاء تشديد القاف وطول الواو التي بين القاف والميم.

ومن ذلك أيضا محاكاة صوت (الثاء) معنى التفشي والتطاير والانتشار، ومحاكاة صوت (الشين) معنى الضعف والهشاشة وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ (القارعة ٤،٥) فالثاء والشين من الأصوات المهموسة، والهمس من علامات الضعف في الأصوات، وقد حاكى هذا الضعف الصوتي ذلك الضعف المعنوي الكامن في البثِّ والنَّفْش وهو ما يبلغ بالكلمة غاية الدقة في التصوير .

ومنه كذلك محاكاة الهمزة معنى الإغلاق والإطباق والإحكام وذلك في قوله تعالى: ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴾(البلد ٢٠)، فـ «أهل اللغة يقولون: أَوْصَدْتُ الباب وآصَدْتُهُ؛ أي أغلقْتُهُ. فمن قال أوصدت، فالاسم الوِصاد، ومن قال آصدته، فالاسم الإصاد. وقرأ أبو عمرو وحفص وحمزة ويعقوب والشَّيْزَرِيُّ عن الكسائي» مُؤْصَدَة «بالهمز،... والباقون بلا همز. وهما لغتان».[٣٢] وجاء في لسان العرب: «أصد الباب أطبقه كأوصده إذا أغلقه ومنه قرأ أبو عمرو: إنها عليهم مؤصدة بالهمز أي مطبقة».[٣٣] واختيار الهمز في هذا الموضع له دلالته؛ لأن الهمزة حرف ثقيل شديد، بل هي أشق الأصوات؛ لأنها تحتاج إلى جهد عضلي قد يزيد على ما يحتاج إليه أي صوت آخر،[٣٤] فهي على كل حال أثقل من الواو، واختيارها على الواو لثقلها وشدتها، لأن الموقف شديد وصعب؛ ومن ثم كانت هي الأنسب والأدل على الكرب والثقل من التسهيل والنطق بالواو.[٣٥]

من هذه الإيحاءات تتضح العلاقة القائمة بين طبيعة هذه الأصوات وما توحي به داخل النفس الإنسانية، إذ إن الأصوات هي مظهر الانفعال النفسي، «وهذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت، بما يخرجه فيه مدا أو غنة أو لينا أو شدة، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها».[٣٦]

٢ - المحاكاة الصوتية باشتقاق النعت من لفظ منعوته .

وذلك من خلال اشتراك النعت مع منعوته في المادة اللغوية أو الجذر اللغوي الواحد الذي يجمعهما، وهذا من عادة العرب أن يصفوا الشيء بما يشتق منه للمبالغة والتأكيد .[٣٧] فقد يأتون بمثل هذا الوصف بوزن «فعيل» كقولهم: «ظل ظليل»، «وقولهم: داء دويٌّ، ويأتون به بوزن أفعل كقولهم: لَيْلٌ أَلْيَل وَيَوْمٌ أَيْوَم، ويأتون به بوزن فاعل كقولهم: شِعر شاعر، ونَصَب ناصب»[٣٨] وهذا ما يسمى عند البلاغيين بـ «تجنيس الاشتقاق» وهو ما جعله الخطيب القزويني بابًا ملحقا بالجناس فقال: «واعلم أنه يلحق بالجناس شيئان أحدهما أن يجمع اللفظين الاشتقاق».[٣٩] وبهذا الاشتقاق تتضح محافظة النص القرآني على الإيقاع الصوتي والتوازن الموسيقي في الفاصلة القرآنية، وبه كذلك يتم تجسيد الدلالة وإبراز المعنى في صورة حسية يتمثلها القارئ المتأني .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ (النساء ٥٧) فالظاء واللام بتكرارهما - في قوله: «ظلا ظليلا» - وقرب مخارجهما[٤٠] يحاكيان معنى الثبات والكثافة والامتداد مع عدم الانقطاع، والاعتدال في ذلك الظل الذي وعد الله به عباده المؤمنين في الجنة حيث لا يرون معه شمسا ولا زمهريرا، ومن ثم فإن وصف الظل بـ (الظليل) هنا دلالة على بلوغه الغاية في جنسه، وهو من تمام محاسن الجنات .

ومنه كذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ (الأحزاب ٣٨) فمن ناحية البناء فإن صيغة مقدور على «مفعول» تضفي على الدلالة الغاية في الحدوث والثبوت ونفاذ الأمر الإلهي، ومن ناحية الأصوات فإن القاف صوت شديد مهموس، والدال صوت شديد مجهور، والراء صوت متوسط بين الشدة والرخاوة، والمتأمل هذه الأصوات يجد محاكاتها - على اختلاف مخارجها - معنى القضاء والنفاذ والبتِّ والإرادة الإلهية في تزويج النبي ﷺ من زينب بنت جحش، فأصبح ذلك أمرا مفعولا لا يُعارض ولا يُناقض. ثم نتأمل حرف الراء الذي جاء رويًّا لهذه الفاصلة النعتية، وهو ثقيل بطبعه نتيجة «تتابع طرقات طرف اللسان على اللثة تتابعا سريعا عند النطق به»،[٤١] «فضلا عن جسأة هذا الحرف ونبوِّه في اللسان وخاصة إذا جاء فاصلة في الكلام»،[٤٢] إلا أنه جاء على عكس طبيعته، فقد سُبق بواو المدّ، والقاف المقلقلة مما مهد لسهولة النطق به، وهذا شأن ألفاظ القرآن في نظمها، وتناسق حروفها بحيث «تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة فيهيئ بعضها لبعض، ويساند بعضا، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف، مساوقة لها في النظم الموسيقي».[٤٣]

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ (الفرقان ٢٢) فالمتأمل لقوله: «حجرا محجورا» يجد أن الحاء - وهي صامت مهموس حلقي

احتكاكي -[٤٤] تهمس بمعاني الحرمان والتحريم والمنع والحبس، فتتلوها الجيم - وهي صوت مجهور يكاد يكون انفجاريا - لتؤكد بجهرها وانفجارها تلك المعاني السابقة، فضلا عن أن الجيم هي المقطع القوي في كلمة (محجورا)؛ حيث يقع الارتكاز القوي في الكلمات التي على وزن «مفعول»على المقطع المقابل لـ «عُ» [٤٥] وذلك مثل «محجورا» ،و«مقدورا»، و «منسيا». وتؤازرهما الراء في ذلك من خلال تكرار طرق (طرف اللسان حافة الحنك) عند النطق بها، وبذلك تتناغم الأصوات بجرسها في هذا التركيب النعتي «حجرا محجورا» لتؤكد قول الملائكة للمجرمين أن البشرى قد حُرِّمت عليهم من الله في ذلك اليوم، وأنها لم تكن إلا للمؤمنين .

ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ (مريم ٢٣) .

فالنَّسْيُ والنِّسْيُ لغتان مثل: الجَسْر والجِسْر، والحَجْر والحِجْر، والوَتْر والوِتْر، والنَّسْيُ: ما تلقيه المرأة من خِرَقِ اعتلالها، ولو أريد به المصدر لكان صوابا كما قال الفراء ،[٤٦] بل إن إرادة المصدر بـ(النَّسْي) في هذا الموضع أدل على المعنى؛ لأنه يفيد الاستغراق في الدلالة على الحدث دون الزمن، وقد ساعد على ذلك بناء النعت على مفعول (منسيًّا) ليؤكد استحقاق هذا النَّسْي أن يكون مطروحا منسيًّا. ومن ثم فإن اشتقاق النعت (مَنْسِيًّا) من لفظ منعوته (نَسْيًا) تأكيد على رغبة مريم - عليها السلام - في نَسْيِ الذكر والأثر استحياء من الناس وخوفا من لائمتهم. وقد حاكى صوت السين بهمسه واحتكاكه معنى الاختفاء والطرح وعدم الذكر، فضلا عن لزوم الفاصلة تكرار الياء المشددة مع التنوين الذي يُقْلَبُ ألفا عند الوقف عليه، فتُعَبِّر هذه الألف برحابة صوتها واتساع الفم عند النطق بها عن الحالة الشعورية الدفينة والموقف النفسي الذي تعاني منه مريم عليها السلام.

وغير ذلك كثير للقارئ المتأمل الذي يلمس من خلال تأمله اختيار الصوت بعناية فائقة في المفردة القرآنية - وبخاصة الفاصلة - تصاحبه أصوات أخرى تُمَهِّد للنطق به، قد تكون متقاربة المخارج أو متباعدة، وذلك وفق ما يقتضيه السياق بشكل يوحي باستقلالية الكلمة المختارة بدلالة أعمق وتصوير أدق.

٣ - المحاكاة الصوتية بإيثار أغرب اللفظين النعتيين .

اختار القرآن الكريم مفرداته على نحو من المناسبة الدقيقة بين اللفظ وأصواته والموقع الذي جاء فيه، مما يجعل للفظ استقلالية صوتية تكسبه تذوقا سمعيا متفردا، بحيث يتعذر استبدال ذلك اللفظ بسواه؛ إذ هو الأدل على مراده من غيره، وذلك من مواطن الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم.

ومن ذلك إيثار النص القرآني بعض الألفاظ النعتية الغريبة للتعبير بها دون غيرها مما هو مألوف أو شائع في الاستعمال اللغوي، كقوله تعالى: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ (

النجم ٢١،٢٢) فقد استعمل النص القرآني كلمة «ضيزى» التي تعني الجور والبخس والمنع بدلا من كلمة جائرة للتعبير بها عن جور تلك القسمة وعدم العدل فيها؛ وذلك لأن المشركين قد زعموا أن لله تعالى البنات وأن لهم البنين، والغريب في ذلك أنهم جعلوا لأنفسهم ما يرضونه، وجعلوا لله ما لا يرضونه لأنفسهم، وقد عَبَّر عن ذلك القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (النحل ٥٨) فلما كانت قسمة أولئك المشركين غريبة من جانبي العقل والمنطق كانت «غرابة اللفظ أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة»،[٤٧] ولو اختار القرآن التعبير بكلمة «جائرة» لاختل الإيقاع المستقيم بكلمة «ضيزى»، ولما أغنت كلمة جائرة عن كلمة ضيزى في المعنى المراد؛ إذ إن القارئ لكلمة «ضيزى» بصوت مسموع يدرك نوعا من الموسيقا المتماوجة من خلال المدِّ إلى أسفل بالياء، ثم المدّ إلى أعلى بالألف على التوالي، وفي هذا الانتقال السريع من أسفل إلى أعلى إيحاء بالتموج وعدم الاتزان اللذين يتفقان مع حالة الجور الشديد في تلك القسمة، فضلا عن الإيحاء المستمد من أصوات هذه الكلمة، فالضاد - بتفخيمها وانفجارها وجهرها وشدتها - توحي بأن الجور في هذه القسمة قد بلغ من المدى مما لا مزيد عليه، والزاي - ذات الجرس الصارخ، والنغم الصارم، والصدى البيِّن - إعلان صريح عن حقيقة هذه القسمة. وقد ذكر الرافعي أن «الجملة كلها كأنها تصور في هيئة النطق بها الإنكار في الأولى، والتهكم في الثانية، وكان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة، وخاصة في اللفظة الغريبة التي تمكنت في موضعها من الفصل، ووصفت حالة المتهكم في إنكاره من إمالة اليد والرأس بهذين المدَّيْن إلى الأسفل والأعلى».[٤٨]

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ (ص ٥) وقوله تعالى: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ (نوح ٢١، ٢٢).

ففي الموضع الأول جاءت كلمة «عُجَاب» على وزن «فُعَال» نعتا لكلمة «شيء»، وفي الموضع الثاني جاءت كلمة «كُبَّارا» على وزن «فُعَّالا» نعتا لكلمة «مكرا».

وهاتان الكلمتان ببنيتهما غريبتان عما هو شائع في الاستعمال، وإذا اتفق أن يكون للصفة أكثر من وزن: «فَعِيل»، و «فُعَال»، و «فُعَّال» فالذي يبدو أن «فُعَالا» أبلغ من «فَعِيل»، و «فُعَّالا» أبلغ منهما معا، قال المعري: «فَعِيل» إذا أريد به المبالغة نقل به إلى «فُعَال» وإذا أريد به الزيادة شددوا فقالوا: «فُعَّال» وذلك مثل عَجِيب وعُجَاب وعُجَّاب، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: «إن هذا لشيء عُجَّاب» بالتشديد، وقالوا: طَوِيل وطُوَّال، ويقال: نَسَبٌ قريب وقُرَاب، وهو أبلغ، قال الحارث بن ظالم:

وكنـــت إذا رأيتَ بني لؤي عرفت الودَّ والنسبَ القُرَابَا.[٤٩]

وإذا تأملنا نعت العجب في سياق النص القرآني وجدناه متفاوتا وفق ما يقتضيه ذلك السياق، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ﴾ (الجن ١) وقوله تعالى: ﴿ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ﴾ (ق ٢)، وقوله تعالى: ﴿ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴾ (هود ٧٢) وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴾ (ص ٥).

فقد تفاوت التعبير عن العجب من موضع إلى آخر، وذلك حسب بساطة المتعَجَّب منه أو شدته، فيأتي العجب قويا أو ضعيفا ،أو متفاوتا بين القوة والضعف، ففي آية الجن وُصِفَت كلمة «قرآنا» بـ«عجبا» «وهو مصدر وُضِع موضع «عجيب» للمبالغة، أي هو عجب في نفسه لفصاحة كلامه، وحسن مبانيه، ودقة معانيه، وغرابة أسلوبه، وبلاغة مواعظه، وكونه مباينا لسائر الكتب[٥٠] وفي آية (ق) كان عجب الكافرين أن جاءهم رسول من بينهم، وهو أمر لا يحتاج إلى مزيد من التأكيد بالصيغة أو المبالغة بالزيادة في بنيتها، وفي آية (هود) كان العجب أشدَّ؛ لأنه ليس من المعتاد أن تلد المرأة وهي عجوز وبعلها شيخ، فضلا عن أنها عقيم ﴿ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴾. (الذاريات ٢٩) ولذلك جاء التعبير القرآني عن العجب في هذا الموضع مؤكدا بـ «إنَّ» و«اللام» فقال: «إن هذا لشيء عجيب» بخلاف آية (ق) فإنه لم يؤكد.[٥١]

وأما في سورة (ص) فقد كان العجب أشد وأكبر؛ لأنه كان من المشركين الذين كانوا ينكرون وحدانية الله، بل عجبوا أن جاءهم الرسول داعيا إلى التوحيد وهو ما ينافي معتقدهم العريق؛ ولذلك استسهلوا على أنفسهم حمل السيف والقتل على أن يقروا بكلمة التوحيد، ولما كان عجبهم أكبر وأشد عُدِل في التعبير عنه من «عَجِيب» إلى «عُجَاب»، فضلا عن تصديره بالاستفهام الإنكاري وتأكيده بـ«إنَّ» و «اللام»، فـ«عُجَاب» أبلغ وأكثر تأكيدا للمعنى من «عجيب».؛ لأن «فُعَالا» أبلغ عند العرب من «فَعِيل»، فـ «طوال» أبلغ من «طويل» و«عراض» أبلغ من «عريض»؛ وذلك «لأن مدة الألف أطول من مدة الياء، وأن فتح الفم بالألف أوسع من فتحه بالياء».[٥٢] ولا شك «أنه لو لم يختلف المعنى لم تختلف الصيغة، إذ كل عدول من صيغة إلى أخرى لا بد أن يصحبه عدول عن معنى إلى آخر إلا إذا كان ذلك لغة».[٥٣] يضاف إلى ما سبق أن كلمة «عُجَاب» تأتي في موضعها محافظة على التوازن الصوتي والنغم الموسيقي في الفاصلة، حيث جاءت مسبوقة بالفاصلة النعتية «كَذَّاب»، وملحقة بالفاصلة النعتية «يُرَاد»، ولا يخفى ما بين الباء والدال من التقارب والتناسب الصوتي. وهذه ميزة فنية من مزايا التعبير القرآني أن تأتي اللفظة ذات دلالة مزدوجة لتؤدي المعنى السياقي والتناسب الإيقاعي جميعا معا على وجه من الدقة محكم .

وأما كلمة «كُبَّارا» فقد جاء النعت بالمشتق من مادتها اللغوية (ك - ب - ر) في واحد وثلاثين موضعا من الفواصل القرآنية على النحو الآتي :

- نُعت بالصفة المشبهة (كبير) في أربعة وعشرين موضعا .
- نُعت باسم التفضيل (الكبرى) في خمسة مواضع .
- نُعت باسم التفضبل (الأكبر) في موضع واحد .
- نُعت بصيغة المبالغة (كُبَّارا) في موضع واحد.

وأبرز ما يميز النعت بالصفة المشبهة (كبير) هو الدلالة على الثبوت، وذلك في مختلف المواضع التي وردت في الفاصلة القرآنية، مثل نعت الفساد بأنه كبير، وكذلك الأجر، والعلُوّ، والطغيان، والعتو، والعذاب، والجهاد، والفضل، والضلال ...إلخ .

وأما النعت باسم التفضيل (الكبرى) فقد جاء في ثلاثة مواضع منه متصلا بآيات الله عز وجل، وهذا يحقق غاية القدرة الإلهية؛ ليظل التفكير متعلقا بهذه القدرة المطلقة. وفي الموضع الرابع جاء في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ (النازعات ٣٤) والطامة من الأوصاف التي اشتقها القرآن ليوم القيامة، وهي لفظة ذات دويٍّ وطنين، تُخَيِّل بجرسها المدوِّي أنها تطم وتعم كالطوفان يغمر كل شيء ويطويه ،[٥٤] ويبلغ هذا المعنى مداه بوصفه بكلمة (الكبرى) التي تدل على المضي بالكبر إلى نهايته القصوى بغير حدود ولا قيود. وفي الموضع الخامس جاء في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ (الأعلى ١٢) فهي نار الآخرة التي لا تفضلها نار؛ فهي أعظم من نار الدنيا بسبعين جزءا كما ورد؛ ولذلك استحقت أن تتصف بفعلى التفضيل التي تدل على الإطلاق دون قيدٍ أو حدٍّ.

وأما النعت باسم التفضيل «الأكبر» فقد جاء في قوله تعالى: ﴿ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴾ (الغاشية ٢٤) وهو وصف للعذاب الذي أعده الله لمن تولى وأعرض عن آياته، وكفر بما أُنزل على محمد ﷺ؛ ومن ثم فهو عذاب لا يضاهيه عذاب، لأنه دائم أبدا في جهنم وبئس المصير .

وأما النعت بكلمة «كُبَّارا» في قوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ (نوح ٢٢) فينبغي الحديث عنه من ناحيتين: البناء، والأصوات، أما البناء فهو بناء مبالغة، قال الفخر الرازي: «وهو مبالغة في الكبير، فأول المراتب: الكَبير والأوسط الكُبَار بالتخفيف والنهاية الكُبَّار بالتثقيل، ونظيره: جَميل وجُمَال وجُمَّال، وعَظيم وعُظَام وعُظَّام وطَويل وطُوَال وطُوَّال»،[٥٥] وقال عيسى بن عمر: هي لغة يمانية،[٥٦] ومثلها: قُرَّاء لكثير القراءة، وذلك نحو قول الشاعر:

بيضاء تصطاد القلوب وتستبي بالحسـن قلـب المسلـم القُرَّاء

وقال ابن الأنباري: هو جمع كبير، كأنه جعل «مكرا» مكان «ذنوب» أو «أفاعيل» ولذلك ساغ الوصف بالجمع.[٥٧]

وعلى كل فإن هذا البناء معدول إليه للمبالغة وثقل موقعه من النفوس، قال ابن جني: «في

المبالغة لا بد أن تترك موضعا إلى موضع إما لفظا إلى لفظ وإما جنسا إلى جنس، فاللفظ كقولك: عُرَاض فهذا قد تركت فيه لفظ عريض. فَعُرَاض إذًا أبلغ من عريض. وكذلك رجل حُسَّان ووُضَّاء؛ فهو أبلغ من قولك: حَسَن ووَضِيء، وكُرَّام أبلغ من كريم؛ لأن كريما على كَرُمَ وهو الباب، وكُرَّام خارج عن بابه فهذا أشد مبالغة من كريم».[٥٨] وما كان ذلك العدول في كلمة «كبارا» إلا رعاية للنسق الصوتي في الفاصلة، ورعاية لمضمون الآية والسياق الذي وردت فيه هذه الكلمة؛ إذ إن الألفاظ دالة على المعاني، قال الزركشي: «واعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان، ثم نقل إلى وزن آخر أعلى منه، فلا بد أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولا، لأن الألفاظ أدلة على المعاني، فإن زيدت في الألفاظ وجب زيادة المعنى ضرورة»؛[٥٩] قد جاء هذا اللفظ دالا على عظم مكر قوم نوح عليه السلام، وهو إشراكهم بالله، وعدم إقرارهم بكلمة التوحيد، ولم يكتفوا بذلك، بل سعوا في الأرض فسادا، وصدوا الناس عنه، ومنعوا أتباعهم من الإيمان به وحذروهم من ترك عبادة آلهتهم ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ (نوح ٢٣)، وبذلك قد بلغوا الغاية في مكرهم مما لا مزيد عليه.

وأما الأصوات، فإن كلمة «كُبَّارا» تحاكي بأصواتها وتناغم حروفها فداحة المكر الذي وقع فيه قوم نوح عليه السلام، فالكاف بانفجارها - مع ضمها الذي يتطلب ضم الشفتين واستدارتهما إلى الأمام - توحي بثقل المعنى والمبالغة فيه، تتلوها الباء التي تؤكد ذلك المعنى من خلال تضعيفها الذي يوجب الوقوف والضغط عليها حتى إذا انفرجت الشفتان فجأة يُسمع ذلك الصوت الانفجاري - وهو الباء - الذي يمتد إلى أعلى بالألف ليدل من خلال هذا المد على بلوغ الغاية في ذلك الوصف، ثم تأتي الراء لتؤكد ذلك كله بتكرار طرق (طرف اللسان حافة الحنك) عند النطق بها؛ ومن ثم جاءت كلمة «كُبَّارا» راسخة في مكانها، مشعة بالإيحاءات والدلالات من خلال ثلاثية بديعة رائعة توافرت لها، وهي: البناء، والأصوات، والسياق، بحيث يتعذر استبدال غيرها بها، وذلك من مواطن الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم .

٤ - المحاكاة الصوتية بمقاطع المفردة النعتية.

المقاطع الصوتية من الأدوات التي يعرف بها نسيج الكلمة، وهي نوعان:[٦٠] متحرك أو مفتوح «Open» وساكن أو مغلق «Closed». والمقطع المتحرك هو الذي ينتهي بصوت لين قصير أو طويل، أما المقطع الساكن فهو الذي ينتهي بصوت ساكن.

وأنواع النسج في المقاطع العربية - كما أوردها الدكتور إبراهيم أنيس - خمسة، الأول والثاني من المقاطع المفتوحة، والثلاثة المتبقية من المقاطع المقفلة وهي:[٦١]

١- صوت ساكن + صوت لين قصير. مثل (بَ) و (وَ).

٢- صوت ساكن + صوت لين طويل. مثل (ما) و (لا).

٣- صوت ساكن + صوت لين قصير + صوت ساكن. مثل (لَمْ) و (قَدْ).

٤- صوت ساكن + صوت لين طويل + صوت ساكن. مثل (بابٌ).

٥- صوت ساكن + صوت لين قصير + صوتان ساكنان. مثل المقطع الأخير من (مستقرّ).

وقد تحققت المناسبة بين مقاطع المفردات النعتية في فواصل القرآن الكريم على نسق فريد ونسج بديع، وهذه المناسبة لم تكن إلا من خلال تناسب المقاطع الصوتية التي يتألف منها النظام الزمني أو الإيقاعي للكلمات، «فالمقاطع المقفلة تستغرق في نطقها زمنا أقل من الزمن الذي تستغرقه المقاطع المفتوحة، ومن هنا كان استخدام المقاطع المقفلة يناسب لونا من التعبير لا تؤديه المقاطع المفتوحة والعكس صحيح».[٦٢]

وليس معنى ما سبق أن دلالة المقاطع الصوتية ثابتة لا تتغير بتغير السياق، بحيث يمكن أن نقول إن المقطع المفتوح يدل على كذا، أو إن المقطع المقفل يدل على كذا؛ لأن ذلك كله مرهون بالسياق الذي تستخدم فيه تلك المقاطع.

وقد أوحت هذه المناسبة بين مقاطع المفردات النعتية في الفواصل القرآنية بالحس البياني الرفيع الذي تتوافق أو تختلف من أجله المقاطع، حيث تطرق الأسماع بانسجامها؛ فيطيب ما فيها من حلاوة الإيقاع؛ مما يجعل للتعبير القرآني روعة وجاذبية خاصة.

وقد استخدم القرآن الكريم المقاطع المقفلة في التعبير عن الحزم القاطع والجد الفاصل الذي لا مجال فيه لتهاون ولا تجوز،[٦٣] وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ (الطارق ١٣، ١٤) فلا نجد أبلغ من هذه المقاطع المقفلة في كلمة «فصل»، وكذلك بقية المقاطع في هاتين الآيتين، التي جاءت حادة حاسمة، تناسب بإقفالها معنى الجد والفصل والصرامة والحسم، وتعبر عن ذلك خير تعبير، وقد عمد القرآن إلى استخدام مقطع مفتوح وسط هذه السلسلة من المقاطع المقفلة هو (ما) ليعبر عن موقف النفي العام الذي يشمل كل هزل.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ (القمر ١٩) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ (القمر ٣٨) فالمتأمل للمقاطع التي تألفت منها كلمة «مستمرّ»، وكلمة «مستقرّ» سيجدها مكونة من ثلاثة مقاطع على النحو التالي:

مُسْـ + تَ + مِـرّ

مقطع مقفل + مقطع مفتوح + مقطع مقفل

مُسْـ + تَ + قِـرّ

مقطع مقفل + مقطع مفتوح + مقطع مقفل

إنها هندسة صوتية من خلال هذه المقاطع المحكمة، حيث جاءت البداية والنهاية لهاتين الكلمتين مقاطع مقفلة، تمثل حالة الحصار الشديد من نقطة البدء إلى نهاية المطاف، ويتوسط هذه المقاطع المقفلة مقطع مفتوح في كل كلمة ليدل على استمرار هذا الحصار وامتداده إلى أن يشاء الله بالنهاية، ففي الأولى (مستمر) حصار بالشر والشؤم وطول البؤس والكرب لذلك اليوم النحس الذي صب الله فيه سوط عذابه على عاد قوم هود عليه السلام، وفي الثانية (مستقر) حصار بالعذاب الذي أذاقه الله قوم لوط وأدامه فيهم حتى يفضي بهم إلى عذاب الآخرة .

ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ (المعارج١) حيث تنتهي كلمة (واقع) بذلك المقطع المقفل (قِعْ) - وذلك بالنظر إلى الوقوف عليه - الذي دل على الوجوب والحسم في وقوع ذلك العذاب، ردا على سؤال المستخف به والمستبعد له.

ومنه كذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ (الإنسان ١٠) حيث جاءت كلمة «قمطريرا» مكونة من أربعة مقاطع:

قَمْـ + طَـ + رِيـ + رَا

مقطع مقفل + مقطع مفتوح + مقطع مفتوح + مقطع مفتوح

فَبُدِئَت هذه الصفة بذلك المقطع المقفل (قَمْـ) الذي يوحي بمدى القبض والشدة والضيق في ذلك اليوم الذي تعبس فيه الوجوه، ويُقبض ما بين أعينها كراهية له، ثم يأتي المقطع الثاني (طَـ)، وهو مكون من صوت ساكن + صوت لين قصير، وعلى الرغم من أنه مفتوح إلا أنه مشعر بثقل هذا اليوم، وربما كان هذا الثقل مستمدا من مجاورة الطاء للميم الساكنة والراءين، ثم يأتي المقطعان الأخيران (رِيـ)، و(رَا) فيوحيان بطول هذا اليوم واستمرار هوله الذي تشيب له الولدان.

ومنه كذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ (الإنسان ٢٧) فجاءت كلمة (ثقيلا) مكونة من ثلاثة مقاطع مفتوحة (ثَـ + قِيـ + لا) وتوحي جميعها بثقل يوم القيامة وطول حسابه وشدة عذابه على أولئك المشركين الذين آثروا الدنيا على الآخرة. فضلا عن التجسيم المستمد من هذه الكلمة «ثقيلا» الذي أبرز المعنى في صورة حسية، وجعل ثقل هذا اليوم ثقلا طبيعيا يعاني وطأته الإنسان، وينخلع قلبه منه.

ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ (المزمل ١٦) فلنتأمل المقاطع المفتوحة التي كونت كلمة «وبيلا» - (وَ + بِيـ + لا) - سنجدها موحية بالأخذ الأليم الشديد الذي لا هوادة فيه ولا لين؛ إنه أخذ الله الجبار القهار، القوي المتين.

وقد نجد هذه المقاطع المفتوحة معبرة في سياق آخر عن الهدوء والتماسك وعدم الغضب،

وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ (المزمل ١٠) وربما جاءت موحية بالنعمة السابغة والكرم الغامر، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴾ (المدثر ١٢) فإن الآية الكريمة تصور جزءا مما أفاض الله به من الخير والنعيم على رجل كفر بهذه النعم ولم يقدرها، وجاءت المقاطع المفتوحة في آخر الكلمة - (دو + دا) - مساهمة في الوضوح السمعي التام، وموحية بصورة الامتداد والاتساع في ذلك النعيم، وهي صورة المعنى المقصود من الآية.

وقد تأتي المقاطع المفتوحة في سياق آخر من التعبير الهادئ فتوحي بالانسيابية والجمال، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾. (الرحمن ٥٠) فإن المقطع المفتوح (يا) في كلمة «تجريان» قد يوحي بتسلسل الماء وجريانه بسهولة ويسر، وقد ساعد في هذا التصوير مجاورة ذلك المقطع للجيم المقلقلة، والراء التي تنساب من طرف اللسان.

وربما جاءت تلك المقاطع المفتوحة معبرة عن النغم الهادئ الذي تطرب له النفس وتلذ له الأسماع، وذلك كقوله تعالى: ﴿ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾. (الغاشية ١٠ - ١٦) وقوله تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ (الواقعة ٢٧ - ٣٤) فإن المتأمل هذه المقاطع المفتوحة التي جاءت في نعوت الغاشية (عا - جا - فو - ضو - فو - ثو)، وكذلك في نعوت الواقعة (ضو - ضو - دو - كو - ثي - نو - فو) يستشعر من خلالها لذة النعيم المتعدد المقيم الذي أعده الله لعباده المؤمنين في الجنة في سياق هادئ تحفه الطمأنينة، وتملؤه السكينة.

وغير ذلك كثير مما جاءت فيه المفردات النعتية في الفواصل القرآنية موحية بالمعاني والدلالات، من خلال تناسب أصواتها، وانسجام مقاطعها، وحسن ائتلافها، وهذا ما يعطي في النهاية التناسب الإيقاعي العذب الذي تهتز له القلوب، وترتاح له النفوس.

٥ - المحاكاة الصوتية بتكرار القالب الصوتي للنعت في الفاصلة القرآنية.

من السمات المميزة للنعت في الفاصلة القرآنية تكرار القالب الصوتي الذي توضع فيه المفردة النعتية في نظام دقيق محكم، فيشيع هذا التكرار جوا موسيقيا رائعا، وانسجاما صوتيا عذبا، تجد له الأذن لذة، وفي تكراره متعة تجعله قريبا إلى النفس، سريع العلوق بالقلب، سهلا في حفظه وترداده.[٦٤]

وكثيرا ما نجد القالب الصوتي مسيطرا على نعوت الفاصلة القرآنية في بعض السور، خاصة إذا كانت فواصلها النعتية قليلة، وذلك كتكراره على وزن «فعيل» في سورة (فصلت) عشر مرات

من ثلاث عشرة فاصلة نعتية بنسبة ٧٦،٩٪ على النحو التالي: «الر حمن الرحيم»، «غفور رحيم»، «ولي حميم»، «حظ عظيم»، «كتاب عزيز»، «حكيم حميد»، «عقاب أليم»، «مكان بعيد»، «عذاب غليظ» «دعاء عريض»، «شقاق بعيد». وتكراره في سورة (ق) على الوزن السابق ثلاث عشرة مرة من ست عشرة فاصلة نعتية بنسبة ٨١،٣٪، وتكراره في سورة (الحجر) على وزن «مفعول» تسع مرات من أربع وعشرين فاصلة نعتية بنسبة ٣٧،٥٪، وتكراره في سورة (الحديد) على وزن «فعيل» ست مرات من سبع فواصل نعتية بنسبة ٨٥،٧٪، وكذلك تكراره في سورة (الطور) على وزن «مفعول» سبع مرات من عشر فواصل نعتية بنسبة ٧٠٪ على النحو التالي: «كتاب مسطور»، «رق منشور»، «البيت المعمور»، «السقف المرفوع»، «البحر المسجور»، «لؤلؤ مكنون»، «سحاب مركوم». ولا يخفى على متأمل ما بين (مسطور، ومنشور) و (المعمور، والمسجور) من التوازي - وهو اتفاق أواخر القرائن في الوزن والرويِّ - الذي يحمل توافقا صوتيا يؤدي إلى إثراء التعبير بهذا الرنين الموسيقي المحبب الذي تنشط له النفس.[٦٥]

ومن ذلك أيضا تكرار القالب الصوتي «فاعلة» نعتا للفاصلة القرآنية في سورة (الحاقة) تسع مرات من ثلاث عشرة فاصلة نعتية بنسبة ٦٩٪ على النحو التالي: (عاتية، خاوية، رابية، واعية، واحدة، واحدة، راضية، عالية، الخالية)، وكلها أشبه بالطرقات السريعة التي تحمل نبرات الوعد والوعيد بصورة سريعة متدفقة، تهز قلب السامع بوحدة قالبها، وتناغم إيقاعها .

وقد يأتي تكرار القالب الصوتي للنعت في الفاصلة القرآنية مصاحبا لسياق معين، ودالا على حالة نفسية خاصة، وذلك كقوله تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ (الواقعة ٢٧ - ٣٤)

حيث جاء القالبان النعتيان: «مفعول»، و «مفعولة» مصاحبين للنعيم المتعدد في هذا السياق المترع بالانسياب والهدوء، ولنتأمل التوازي ما بين (مخضود، ومنضود)، و (ممنوعة، ومرفوعة) الذي ساعد في امتداد النغم الموسيقي الهادئ وناسب هذه الصورة البديعة لأصحاب اليمين. وفي المقابل يتغير القالب الصوتي للنعت ليرسم صورة أخرى، دالة على حالة نفسية جديدة لأصحاب الشمال وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (الواقعة ٤١- ٤٦)

ومن ذلك أيضا ما جاء في سورة (الغاشية)، حيث جاء القالب الصوتي «فاعلة» للنعت يحمل دلالتين مختلفتين، وكأنه يطوي في داخله نبرتين مختلفتين، الأولى هي نبرة الوعيد الذي توعد به الله أهل الكفر، وذلك في قوله تعالى: ﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴾. (الغاشية ٤-٥) والثانية

هي نبرة الوعد الصادق الذي وعد الله به عباده المؤمنين في الجنة، فقال تعالى: ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ (الغاشية ١٠- ١٢) حيث جاء القالب الصوتي للنعت " فاعلة " مع أهل الجنة يحمل نغمة مغايرة لما كان يحملها من قبل مع أهل النار، وقد ساعد في ذلك الفصل بين النغمتين بقالبين مختلفين في الفاصلة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ (الغاشية ٦- ٧) وتتصاعد موجات النغمة المبشرة لأصحاب الوجوه الناعمة، فيتغير القالب الصوتي للنعت إلى «مفعولة»، وكأن ذلك إعلان بالمزيد الذي أعده الله لعباده المؤمنين، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ (الغاشية ١٣ - ١٦) بالإضافة إلى ما بين «مرفوعة»، و «موضوعة» من تواز، وما بين «مصفوفة»، و«مبثوثة» من توازن - وهو اتفاق أعجاز القرائن في الوزن دون الرويِّ - اللذين ساعدا في إثراء النغم الموسيقي في الفواصل النعتية، وأشاعا جوا هادئا ملائما للسياق كله.

وغير ذلك كثير مما أسهم فيه تغيير القالب الصوتي للفاصلة النعتية بتلوين الأداء تلوينا يأخذ القلب والعقل معا، حيث يختلف الإيقاع والنغم الموسيقي بصورة لا يمكن أن نحس فيها بشيء من الرتابة .

المبحث الثاني
الوظائف الدلالية للتركيب النعتي في الفاصلة القرآنية.

للنعت وجود بَيِّن في الفاصلة القرآنية؛ بل هو أكثر الوظائف النحوية استعمالا في الفواصل القرآنية، وقد تعددت معاني النعت في الفاصلة القرآنية بتعدد السياقات التي شُغلت به؛ فالنعت وظيفة نحوية سياقية، بمعنى أن لكل تركيب نعتي معنى نحويا - وهو التوضيح للمعارف والتخصيص للنكرات - ومعنى أخر بلاغيا مستمدا من العناصر السياقية المتنوعة المكونة لذلك التركيب. وفيما يلي تفصيل ذلك:

أولا: المعاني البلاغية للنعت في الفاصلة القرآنية :

١- المدح، نحو قوله تعالى: ﴿ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾ (المائدة ٨٤).

٢- الذم، نحو قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (آل عمران ٣٦).

٣- التوكيد، نحو قوله تعالى :﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ (الحاقة ١٣) .

٤- التهويل، نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ (الصافات ٦٤،٦٥) .

٥- الترهيب، نحو قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ (الحجر ٥٠)، وزاد من حدة الترهيب في التعبير القرآني تنويع نعت كلمة «العذاب» في الفاصلة القرآنية، حيث جاءت منعوتة في هذا الموضع ما يناهز ١١٠ مرات بنسبة ٨،٩٥٪ من النعوت الكلية في الفواصل القرآنية وذلك على النحو الآتي:

- نُعتَ العذاب في الفاصلة القرآنية بكلمة « عظيم» ١٥ مرة.
- نُعتَ بكلمة «أليم» ٥٨ مرة .
- نُعتَ بكلمة «مهين» ١٤ مرة .
- نُعتَ بكلمة «مقيم» ٥ مرات .
- نُعتَ بكلمة «غليظ» ٤ مرات .
- نُعتَ بكلمة «شديد» ٥ مرات .
- نُعتَ بكلمة «نكرا» مرتين .
- نُعتَ بكلمة «قريب» مرة واحدة.
- نُعتَ بكلمة «كبير» مرة واحدة .

- نُعتَ بكلمة «واصب» مرة واحدة .
- نُعتَ بكلمة «مستقر» مرة واحدة .
- نُعتَ بكلمة «واقع» مرة واحدة .
- نُعتَ بكلمة «صعدا» مرة واحدة .
- نُعتَ بكلمة «الأكبر» مرة واحدة.

وهذا التنويع يدل على بلاغة الترهيب في هذا الموقع من النص القرآني، حيث يضيف النعت في كل مرة صفة جديدة لكلمة « العذاب »، وفي النهاية تتآزر هذه الصفات في حمل نبرة شديدة للتهديد والوعيد، كما يعطي هذا التنويع إشارة قوية إلى أهمية الفاصلة القرآنية من حيث ضرورة ملئها بالمعاني التي يسهل تعلقها بالذهن وتسترعي الوقوف عندها والتأمل فيها؛ لأن الفاصلة هي الكلمة الأخيرة من القرينة أو المقطع الأخير من الآية .

٦- الترغيب، نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء ٩)، وقد تعددت النعوت لكلمة «أجر» في الفاصلة القرآنية، حيث جاءت منعوتة ٢٦ مرة بنسبة ٢،١٪ من مجموع الفواصل النعتية، فَنُعتت بكلمة «عظيم» ١٧ مرة، وبكلمة «كبير» ٤ مرات، وبكلمة «كريم» ٤ مرات، وبكلمة «حسنا» مرة واحدة، وهذا ما يدل أيضا على بلاغة الترغيب في الفاصلة القرآنية، وضرورة التركيز عليه في هذا الموقع.

٧- إتمام الفائدة الأساسية بالاشتراك مع الخبر.

الأصل في الخبر أن تتم الفائدة به وحده، لكنه في بعض الأحيان يعجز عن إتمام الفائدة إلا بمساعدة لفظ آخر كالنعت، ومن ثم يقوم النعت أحيانا مقام العمد والأركان في الجمل وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ (الشعراء ١٦٦)، وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ (الحشر ١٣) .

ثانيا: الوظائف الدلالية للنعت في الفاصلة القرآنية.

يُعَدُّ النعت عنصرا مهما من عناصر بناء الفاصلة القرآنية؛ لأنه - كما سبق - من أكثر الوظائف النحوية استعمالا في الفواصل القرآنية، فقد أسهم بصورة واضحة في تشكيل البنية الإيقاعية للفاصلة القرآنية، وكان له الدور الفعال في تحقيق التماسك بين فواصل السورة الواحدة من خلال تمركزه في هذا الموضع من النص القرآني، كما أدى بدوره إلى امتداد الجملة وإطالة بنائها في الفاصلة القرآنية. وفيما يلي تفصيل ذلك:

١ - دور النعت في تشكيل البنية الإيقاعية للفاصلة القرآنية.

النعت وظيفة نحوية لها دور بارز في تنوع الأداء وتلوينه؛ وذلك لتعدد ما يمكن أن يُشغل به النعت، فقد يشغل بالمفرد، أو بالجملة، أو بشبهها، وهو ما يسمح به النظام اللغوي، مما يجعل للنعت دورا مهما في تلاحم النسيج النصي .

وكان للنعت وجود واضح في الفاصلة القرآنية؛ فقد شغل ما يناهز خُمُسَ الفواصل القرآنية، وهي نسبة كبيرة إذا ما قورنت بنسب غيرها من الوظائف النحوية الأخرى، وفيما يلي تفصيل ذلك:

ورد النعت في الفاصلة القرآنية ١٢٢٨ مرة بنسبة ١٩،٧٪ من مجموع الفواصل القرآنية، وذلك على النحو التالي:

- بلغ النعت بالمفرد في الفاصلة القرآنية ١٠٠٣ مرات بنسبة ٨١،٦٧٪ من مجموع الفواصل النعتية.
- ورد النعت بالجملة في الفاصلة القرآنية ١١٦ مرة بنسبة ٩،٤٤٪ .
- ورد النعت بشبه الجملة الجار والمجرور ١١٧ مرة بنسبة ٩،٥٢٪ .

وما سبق يدل على أن الفاصلة القرآنية كثيرا ما تكون كلمة واحدة، وقليلا ما تكون جملة تامة أو شبه جملة، وتفسير ذلك أن الفاصلة القرآنية موضع تطريب وتنغيم يُعْمَد إليه عمدا، فهي قيمة صوتية تكسب النظم القرآني قوة في التعبير، وإحكاما في الترابط النصي، أي تأتي الفاصلة في موضعها ذات دلالة مزدوجة، الأولى مراعاة السياق، والثانية ملاءمة الإيقاع، وذلك بدقة متناهية، فقد تبين أن القرآن لا يُعنى بالفاصلة على حساب المعنى، ولا على حساب مقتضى الحال والسياق، بل هو يحسب لكل ذلك حسابه، فهو يختار الفاصلة مراعى فيها المعنى والسياق والجرس[٦٦] جميعا معا، دون أن يطغى أحدها على الآخر.

وهذا التطريب الذي يُعمد إليه في الفاصلة يُشكل بالمفرد أكثر من تشكله بالجملة وشبهها؛ وذلك لتنوع أواخر المفرد بين الرفع والنصب والجر، فضلا عن أن المفرد يُنعت به النكرة والمعرفة على حدٍّ سواء، أما الجملة وشبهها فهما مقيدان بالنكرة دون المعرفة، كما أن المفرد مقطع خفيف؛ لأنه يتكون من كلمة واحدة، أما الجملة فهي مقطع ثقيل، لأنها متعددة الأركان، ولا شك أن المقطع الخفيف أسهل في التشكيل الإيقاعي من المقطع الثقيل أو ما يشبهه؛ من هنا حظي النعت المفرد بالنصيب الأكبر في تلوين الأداء به في الفاصلة القرآنية.

وليس معنى ما سبق أن النعت بالجملة وشبهها قد يأتي مفرغا من الدلالة الإيقاعية في الفاصلة القرآنية، أو لا يسهم في تشكيل القيمة الصوتية للفاصلة القرآنية، بل إن المتأمل يجد أن النعت بالجملة في الفاصلة القرآنية لا يأتي إلا مطمئنا في قراره، راسخا في موضعه، محافظا

على سلامة البنية الإيقاعية لفواصله السابقة واللاحقة. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ (المؤمنون ٦٣) حيث جاء النعت بالجملة الاسمية «هم لها عاملون» محققا النغم الإيقاعي - وهو نوع من التلاحم النصي - للفاصلة مع ما قبلها في قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (المؤمنون ٦٢) ومع ما بعدها في قوله تعالى: ﴿ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴾ (المؤمنون ٦٤).

ومنه كذلك قوله تعالى: ﴿ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ (الشعراء ١٤٨) فقد جاء النعت بالجملة الاسمية «طلعها هضيم» مساعدا في تسلسل النغم الصوتي من خلال تناسب الميم المردفة بياء المد في كلمة «هضيم» مع النون المردفة بواو المد في قوله تعالى: ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ (الشعراء ١٤٧) وكذلك مع النون المردفة بياء المد في قوله تعالى: ﴿ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴾ (الشعراء ١٤٩) ومعلوم ما بين الميم والنون من تقارب صوتي؛ إذ هما الحرفان الطبيعيان في الموسيقا نفسها، وهو ما سبق توضيحه آنفا .

ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.(النحل ١١) حيث جاء النعت بالجملة الفعلية «يتفكرون» متناسبا إيقاعيا مع الفاصلة السابقة في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ (النحل ١٠) وكذلك الفاصلة اللاحقة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (النحل ١٢).

ومن ذلك أيضا تحقيق التناسب الإيقاعي في الفاصلة القرآنية بالنعت بشبه الجملة الجار والمجرور، كقوله تعالى: ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ (الذاريات ٣٣) حيث جاء النعت بشبه الجملة «من طين» متناسبا إيقاعيا مع ما قبله في قوله تعالى: ﴿ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾.(الذاريات ٣٢) ومع ما بعده في قوله تعالى: ﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ (الذاريات ٣٤) .

وقد لوحظ أن النعت بالجملة الفعلية في الفاصلة القرآنية أكثر منه بالجملة الاسمية، فقد ورد النعت بالجملة الفعلية ٩٦ مرة، في حين ورد النعت بالجملة الاسمية ٢٠ مرة، ومن ثم فإن نسبة النعت بالجملة الفعلية إلى النعت بالجملة الاسمية في الفاصلة القرآنية تبلغ ٤،٨، أي أن النعت بالجملة الفعلية يناهز خمسة أضعاف النعت بالجملة الاسمية في الفاصلة القرآنية، وهذا أمر واقع في اللغة العربية؛ إذ إن الجملة الفعلية أكثر استعمالا من الجملة الاسمية، بل يذهب بعض اللغويين إلى أن أساس التعبير في العربية إنما هو بالفعل، ومن النحاة من يرى أن النعت بالجملة الفعلية أقوى منه بالجملة الاسمية؛ وذلك لاشتمال الفعلية على الفعل المناسب للوصف في الاشتقاق، وأما الاسمية، فقد تخلو من المشتق خلوا تاما نحو: جاء رجل أبوه زيد[٦٧].

كما لوحظ على النعوت الجملية وأشباهها في الفاصلة القرآنية انتهاؤها بالواو والنون، أو الياء والنون، أو الياء والميم، وذلك على النحو التالي:

- جاءت أغلب النعوت الجملية في الفاصلة جملة فعلية فعلها مضارع من الأفعال الخمسة المرفوعة بثبوت النون، وبذلك تأتي الفاصلة النعتية ملائمة لموقعها بما تحمله النون المردفة بواو المد

من غنة محببة إلى السمع، تضفي قيمة موسيقية رفيعة على الفواصل القرآنية عامة والنعتية خاصة .وكانت الجملة الفعلية المنعوت بها في الفاصلة القرآنية - في أغلب مواضعها - نعتا لكلمة «قوم» وذلك في ثلاثة وستين موضعا بنسبة ٦٥،٦٪، حيث تأتي كلمة «قوم» نكرة وبذلك تُهيَّأ لأن تُنعت بالجملة الفعلية المنتهية بالواو والنون، نحو: « لقوم يؤمنون، يعقلون، يتفكرون، يسمعون، يشكرون... إلخ، أو تُنعت بجمع المذكر السالم في حالاته الإعرابية الثلاث نحو: «مسرفون، مسحورون، منكرون، آخرين، مؤمنين، كافرين...»، وقد تأتي كلمة «قوم» معرفة فتُنعت بجمع المذكر السالم نحو: «الظالمين، الضالين، الفاسقين...».

- جاءت أغلب النعوت بالجملة الاسمية منتهية بجمع المذكر السالم نحو قوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ (المؤمنون ٦٣) أو منتهية بكلمة تكون الواو والنون من بنيتها كقوله تعالى: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ (الطور ٢٤) أو الياء والنون كقوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ (الصافات ٦٤،٦٥) أو الياء والميم كقوله تعالى: ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ (التوبة ٢١).

-جاءت أغلب النعوت بشبه الجملة الجار والمجرور منتهية بجمع المذكر السالم، كقوله تعالى: ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾.(الأعراف ٨٠) أو منتهية بلفظ تكون النون فيه من بنيته، وذلك كقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ (ص ٧١) .

وكل ذلك لينتهي مقطع الفاصلة النعتية بعناصر التطريب - وهي: الواو والنون، والياء والنون، والياء والميم - التي تساعد في تلاحم الفواصل النعتية جميعا من الناحية الصوتية؛ ومن ثم تزداد سلامة البنية الإيقاعية للفواصل القرآنية كلها.

٢- مركزية النعت في الفاصلة القرآنية.

أقيم معمار الفاصلة القرآنية في بعض السور على النعت لما يتضمنه من التوضيح والإبانة، أو التخصيص والتحديد، ولما يحمله من معان بلاغية متنوعة مستمدة من العناصر السياقية المختلفة، ولذلك كانت العلاقة النعتية محورا رئيسا من محاور بناء الفاصلة القرآنية في بعض السور كسورة الفتح التي بلغت فواصلها النعتية ١٣ فاصلة بنسبة ٤٤،٩٪ من مجموع فواصل السورة، وسورة الأحقاف التي بلغت فواصلها النعتية ١٢ فاصلة بنسبة ٣٤،٣٪، وسورة النساء التي بلغت فواصلها النعتية ٥٣ فاصلة بنسبة ٣٠٪، وغير ذلك كثير، مما يدل على أهمية النعت في هذا الموقع من النص القرآني .

وكان لهذه المركزية دور مهم في تماسك الفواصل القرآنية، فالفواصل - كما قال الزركشي[٦٨]

- هي كلمة آخر الآية، كقافية الشعر وقرينة السجع، إلا أنها تختلف عنهما بالتمكن والتنوع، إذ إن القافية أو السجع يراعى فيهما غالبا الجانب الصوتي فقط دون تركيز على المعنى، أما الفاصلة فلا بد أن تكون مناسبة بأصواتها ومقاطعها لمضمون الآيات، وقد حققت الفاصلة النعتية هذه المناسبة بشكليها اللفظي والمعنوي، ومن ثم كان لها دور مهم في تماسك الفواصل القرآنية من خلال ما يأتي:

١ - ٢

دور النعت في تحقيق السبك الصوتي في الفاصلة القرآنية.

يُعَدُّ السبك من أهم المعايير النصية عند علماء لغة النص، فهو عنصر جوهري في تشكيل النص وتفسيره، وإذا أصبح الكلام خاليا من عنصر السبك أصبح غير واضح، وتعلق به الغموض[٦٩].

وقد شكل النعت عنصرا مهما من عناصر السبك الصوتي من خلال ثلاثة أشكال نبَّه إليها البلاغيون القدماء في تقسيماتهم للفاصلة القرآنية، وهي: التوازي، والتوازن، والتطريف.

أما التوازي، فهو اتفاق أواخر القرائن في الوزن والروي[٧٠]، ومنه قوله تعالى: ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ (الغاشية ١٣، ١٤)، وقوله تعالى: ﴿ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾ (الطور ٢، ٣)، فقد جاءت النعوت في الآيات - مرفوعة، موضوعة، مسطور، منشور - محققة نوعا من التماسك بين الفواصل بما تحمله من توافق صوتي بإعادة القالب الصوتي الأخير وتكرار حرف الروي.

وأما التوازن، فهو اتفاق أعجاز القرائن في الوزن دون الروي، وقد يكون ذلك ناتجا عن أن اعتياد الأذن على نهاية صوتية واحدة لكل قرينة قد يفقدها عنصر المفاجأة التي توقظ النفس وتنبه الذهن[٧١]، إلا أن القرائن المتوازنة في النهاية تحقق نوعا من التماسك بينها بما تحمله من تكرار للقالب الصوتي يؤدي إلى خلق إيقاع محبب تألفه أذن السامع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الصافات ١١٧، ١١٨).

وأما التطريف، فهو ما اتفقت فيه الأعجاز في الروي دون الوزن[٧٢]، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ (مريم ٢١، ٢٢)، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (النمل ١٢، ١٣).

إلى غير ذلك مما جاءت فيه النعوت مُشَكِّلَةً محورا من المحاور الرئيسة للسبك بين الفواصل القرآنية، وذلك بما تحمله من توافق صوتي في الوزن والروي، أو في الوزن دون الروي، أو في الروي دون الوزن.

٢ - ٢

أثر تكرار النعت في تماسك الفواصل القرآنية

التكرار وسيلة من وسائل التماسك المعجمي يطلق عليها بعض الدارسين «الإحالة التكرارية»، وتتمثل في إعادة عنصر من العناصر اللغوية في بداية كل جملة أو نهايتها لغرض التأكيد [٧٣]. وتشير الدراسات اللسانية إلى أن هذه الظاهرة اللغوية تسهم بشكل واضح في ربط عناصر النص المتباعدة، كما أنها تحقق استمرارية النص والتلاحم بين عناصره من خلال استمرارية عنصر لغوي من أول النص إلى آخره[٧٤]، ومن ثم فإن التكرار وسيلة مزدوجة الدلالة؛ إذ يشير إلى معان دلالية من خلال تكرار عنصر معين من العناصر اللغوية، فضلا عما يحققه من السبك النصي. وقد حقق النعت هاتين الدلالتين من خلال تكراره في الفواصل القرآنية على النحو الآتي:

٢ - ٢ - ١

تكرار النعت مع وحدة المرجع .

وهو ما يكون فيه مسمى العنصر المكرر واحدا[٧٥]، وهذه الصورة هي أكثر ما جاء عليها تكرار النعت في الفاصلة القرآنية، وبخاصة تكرار التركيب النعتي كله، أي تكرار النعت مع منعوته، ومن ذلك تكرار «أجرا عظيما» في سورة النساء سبع مرات من ثلاث وخمسين فاصلة نعتية بنسبة ١٣،٢٪، وتكرار كل من «عذابا مهينا»، و «عذابا أليما» ثلاث مرات في السورة نفسها.

ومنه أيضا تكرار «عذاب أليم» خمس مرات في فواصل سورة التوبة، وتكرار «الفوز العظيم» أربع مرات في فواصل السورة نفسها، ومنه كذلك تكرار «عباد الله المخلصين» خمس مرات في فواصل سورة الصافات، وتكرار «عبادنا المؤمنين» أربع مرات في فواصل السورة نفسها. ولا شك أن هذا التكرار يصرف ذهن القارئ إلى الوقوف على دلالة العنصر المكرر، ومحاولة ربط هذه الدلالة بالمواضع التي تكرر فيها ذلك العنصر اللغوي؛ مما يزيد من قوة التماسك النصي بين الفواصل القرآنية.

٢ - ٢ - ٢

تكرار النعت مع اختلاف المرجع

وهو ما يكون فيه مسمى العنصر المكرر متعددا[٧٦]، وهذه الصورة هي أقل ما جاء عليها تكرار النعت في الفاصلة القرآنية، ومنها تكرار النعت بكلمة «مبين» في سورة هود ثلاث مرات، وفي سورة يس سبع مرات، وفي سورة النمل ست مرات، وفي سورة الشعراء ست مرات وهي: «الكتاب المبين»، «شيء مبين»، «ثعبان مبين»، «ضلال مبين»، «نذير مبين»، «عربي مبين»، فإبانة

الكتاب غير إبانة الثعبان، وهما معا غير إبانة الضلال، وهذا ما يدفع القارئ إلى محاولة الربط بين تلك المواضع التي تكرر فيها ذلك النعت.

٢ - ٢ - ٣

شبه التكرار للنعت

ذكر الدكتور سعد مصلوح[٧٧] أن هذا النوع من التكرار يقوم في جوهره على التوهم؛ إذ تفتقد العناصر فيه علاقة التكرار المحض، ومن ثم فإن شبه التكرار يتحقق غالبا في مستوى التشكل الصوتي، وهو ما يشد انتباه القارئ ويصنع تماسكا قويا بين الفواصل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ (الصافات ٩-١١)، فقد حقق تكرار القالب الصوتي «فاعل» للنعوت (واصب، ثاقب، لازب) نوعا من التماسك النصي بين الآيات، وهذا ما سبق توضيحه بنماذج متعددة في المبحث الأول.

٢ - ٢ - ٤

التكرار الجراماتيكي للنعت

هو تكرار نظم الجمل بكيفية واحدة، أي تكرار للطريقة التي تبنى بها الجملة وشبه الجملة مع اختلاف الوحدات المعجمية التي تتألف منها الجمل[٧٨]، وهو كذلك يتحقق غالبا في مستوى التشكل الصوتي نحو قوله تعالى: ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ مع قوله تعالى: ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ (الأنعام ٩٧،٩٨).

٢ - ٣

التدرج التسلسلي للنعت في الفاصلة القرآنية

هو وسيلة من وسائل التماسك بين الفواصل القرآنية، وذلك من خلال التدرج في النعوت لمنعوت واحد، وذلك مع مراعاة مناسبة كل نعت في الفاصلة لمضمون آيته، وذلك نحو التدرج في نعت كلمة « قوم » في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٩٧ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ۝٩٨ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام ٩٧-٩٩).

فالمتأمل هذه الآيات يلاحظ ارتباطا وثيقا بينها، ولا يمكن أن يقف على آية واحدة دون الأخريين حتى يكتمل المعنى لديه، وربما كان هذا التماسك نابعا من التدرج في نعت كلمة«قوم» في فاصلة كل آية على النحو الآتي:

الاهتداء بالنجوم ← لقوم يعلمون

إنشاء بني آدم من نفس واحدة ← لقوم يفقهون

إنزال الماء من السماء وإخراج شتى النبات به ← لقوم يؤمنون

فالفقه أدق من العلم؛ لأن العلم هو المعرفة الموافقة للحقيقة، أما الفقه فهو إدراك الأشياء الدقيقة[٧٩]؛ لذا خُتِمت الآية مع ذكر النجوم والاهتداء بها بـ «يعلمون»، إذ إن معرفة ذلك لا تحتاج إلى مزيد من التأمل والتدبر، أما تسلسل الإنسانية من نفس واحدة فهو أدق صنعة وألطف تدبيرا، ولذلك كانت فاصلة أية النشأة بـ «يفقهون»، فكأن العلم يؤدي إلى الفقه، وكأنهما معا يؤديان إلى الإيمان الحقيقي.

ومثل ذلك أيضا التدرج في نعت كلمة «قوم» في سورة الرعد، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الرعد ٣)، وبعدها قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. (الرعد ٤)؛ لأن بالتفكر في الآيات يُعقل ما جُعلت الآيات دليلا عليه، فهو الأول المؤدي إلى الثاني[٨٠]، وفي هذا التدرج ما لا يخفى من الإحكام والربط بين الآيات .

ومنه كذلك التدرج في نعت كلمة «عذاب» في سورة الجاثية في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠ هَٰذَا هُدًى ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ (الجاثية ٧-١١). فالمتأمل للتركيب النعتي في الآيات السابقة يجده مساعدا على ربط الآيات جميعا وفك شفرتها من خلال تدرج نعت كلمة «عذاب» في فواصل الآيات على النحو الآتي:

العذاب ↑

مع كفرهم بآيات ربهم ← من رجز أليم

مع تخلي كل شيء عنهم ← عظيم

مع الاستهزاء بآيات الله ← مهين

مع الإصرار على الكفر استكبارا ← أليم

فالملاحظ أن حركة العذاب حركة رأسية مستمرة، تجسدها النعوت المتعددة - (أليم - مهين- عظيم - من رجز أليم) - فصار هذا التعدد كأنه تكرار بعد تكرار، وتوكيد بعد توكيد، يدلان معا على الارتقاء والتدرج في ذلك العذاب؛ لأن كل صفة لاحقة تتضمن الصفة السابقة عليها، وهذا ما يجعل نبرة العذاب عالية تحمل تهديدا مخيفا ووعيدا شديدا يليق بمن أصروا على كفرهم مستكبرين ومستهزئين بآيات ربهم.

٣ - دور النعت في إطالة بناء الجملة في الفاصلة القرآنية

كان لمركزية النعت في الفاصلة القرآنية دور مهم في إطالة بناء الجملة فيها، وهذا مرهون بحاجة السياق إليه؛ فأحيانا يكتفي السياق بنعت واحد متمم للغرض الدلالي، وأحيانا أخرى يحتاج إلى نعوت متعددة ليتم الغرض المقصود بها، وتتنوع هذه النعوت المتعددة فتارة تكون مفردة كقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ (الحاقة ٦)، وتارة أخرى تكون متنوعة بين المفردة والجملة وشبه الجملة، وذلك كقوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ (إبراهيم ٢٦)، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ (سبأ ٥).

وربما تَرَتَّبَ على النعت عناصر أخرى من الكلام ساعدت في امتداد بناء الجملة في الفاصلة القرآنية، كَتَرَتُّب جملة الصلة على اسم الموصول المنعوت به، وذلك كقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ (الأنبياء ٥٢)، حيث يلزم اسم الموصول بعده جملة صلة تزيل إبهامه وتكمل دلالته، ومن ثم تمتد الجملة به، أو تَرَتُّب المضاف إليه على المضاف المنعوت به، وذلك إذا كان النعت بـ «ذو» أو أحد فروعها، كقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ﴾ (البقرة ١٠٥)، وبذلك أدى النعت دورا مهما في امتداد الجملة وإطالة بنائها في الفاصلة القرآنية حسب ما يقتضي السياق.

خاتمة

تَبَيَّنَ من خلال هذه الدراسة أن المفردة القرآنية بصفة عامة، والنعتية بصفة خاصة يتم اختيارها في الفاصلة القرآنية بعناية فائقة من ناحية أصواتها، وبنائها، ووضعها في سياق ملائم لها، بحيث يمكنها أن تؤدي دورا مزدوجا من خلال موقعها وهو مراعاة مضمون الآية، ومراعاة سلامة الإيقاع.

وجاء النعت في الفاصلة القرآنية مشعا بالإيحاءات والدلالات من خلال محاكاته بأصواته للمعنى محاكاة صوتية طبيعية، وكان له دور بارز في الفاصلة القرآنية، فهو أكثر الوظائف النحوية استعمالا في هذا الموقع من النص القرآني، حيث شَغَلَ ما يناهز خُمُس الفواصل القرآنية كلها، ومن ثم كان له دور فَعَّال في تشكيل البنية الإيقاعية للفاصلة القرآنية، وفي تحقيق التماسك بين فواصل السورة الواحدة، وفي امتداد الجملة وإطالة بنائها في الفاصلة بشكل يتطلبه السياق.

الهوامش

(١) المدخل إلى علم اللغة :١٠١ د. رمضان عبد التواب .

(٢) الأصوات اللغوية: ٩٠ د. إبراهيم أنيس .

(٣) السابق: ٢٠

(٤) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ١٧٦ د. محمود السعران .

(٥) الأساليب الإنشائية في النحو العربي :١٠٦ عبد السلام هارون .

(٦) الأصوات اللغوية: ٤٥،٦٦

(٧) سر الصناعة :٧٤ ابن جني .

(٨) البرهان في علوم القرآن :١/٥٤

(٩) الكتاب: ٢/٢٩٨

(١٠) الخصائص: ١/٢٣٤

(١١) السابق: ١/٢٣٣

(١٢) الأصوات اللغوية: ١٥٤

(١٣) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ١٦٨

(١٤) مناهل العرفان: ٢/٣١٢

(١٥) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ١٥٢

(١٦) الخصائص: ٢/١٥٧، ١٥٨

(١٧) دلالة الألفاظ: ٦٨، ٧٠

(١٨) الخصائص: ١/٦٥

(١٩) السابق: ٢/١٥٨

(٢٠) الجامع لأحكام القرآن: ١٧/١٨٣

(٢١) روح المعاني: ٢٧/١٢٢

(٢٢) الخصائص: ٢/١٦١

(٢٣) لسان العرب: (خنس) ٦/٧١

(٢٤) السابق: (كنس) ٦/١٩٧

(٢٥) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي :١٩٢

(٢٦) دراسات قرآنية في جزء عم: ٩٩

(٢٧) زاد المسير: ٢٩/٩٧

(٢٨) لسان العرب: (غسل).

(٢٩) البيان في روائع القرآن: ٢٩٤

(٣٠) السابق: ٢٩٧

(٣١) السابق: ٢٩٣

(٣٢) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/٧٢

(٣٣) لسان العرب (أصد): ٤/٣٩

(٣٤) الأصوات اللغوية: ٩٠

(٣٥) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل: ٢٨٠

(٣٦) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ٢١٥

(٣٧) روح المعاني: ٦٠/٥

(٣٨) التحرير والتنوير: ٩١،٩٠/٥

(٣٩) الإيضاح في علوم البلاغة: ٢٢٠

(٤٠) هناك وجه شبه بين هذين الصوتين، وهو أن مخارجهما تكاد تنحصر بين أول اللسان (بما فيه طرفه) والثنايا العليا (بما فيها أصولها). انظر: الأصوات اللغوية :٤٦

(٤١) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ١٧١

(٤٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ١٥٧

(٤٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ١٥٦

(٤٤) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ١٧٨

(٤٥) السابق :١٩٠

(٤٦) معاني القرآن للفراء: ١٦٥،١٦٤/٢

(٤٧) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ١٥٨

(٤٨) السابق: ١٥٩

(٤٩) البرهان في علوم القرآن: ٥١٤، ٥١٣/٢

(٥٠) البحر المحيط: ٣٥٤/٨

(٥١) التعبير القرآني: ٣٧

(٥٢) معاني الأبنية العربية: ٢٥

(٥٣) السابق: ٦

(٥٤) التصوير الفني في القرآن: ٩٥

(٥٥) تفسير الرازي: ١٤٢/٣٠

(٥٦) روح المعاني: ٩٥/٢٩

(٥٧) السابق: نفسه .

(٥٨) الخصائص: ٣ / ٤٦

(٥٩) البرهان في علوم القرآن: ٣ / ٨٣

(٦٠) الأصوات اللغوية: ١٦٠، ١٥٩

(٦١) السابق: ١٦٣

(٦٢) دراسات قرآنية في جزء عم: ١٠٩

(٦٣) السابق: ١١٣

(٦٤) السابق: ١٠٣

(٦٥) السابق: ١٢٠

(٦٦) التعبير القرآني: ٢٣٦

(٦٧) حاشية الصبان على شرح الأشموني: ٩٣/٣

(٦٨) البرهان في علوم القرآن: ٥٣/١

(٦٩) نظرية علم النص: ٨٠

(٧٠) البرهان في علوم القرآن: ٧٥/١

(٧١) دراسات قرآنية في جزء عم: ١٢٢

(٧٢) السابق: ١٢٣

(٧٣) لسانيات النص: ١٢٥

(٧٤) السابق: نفسه .

(٧٥) نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي: ١٠٧

(٧٦) السابق: نفسه .

(٧٧) نحو أجرومية للنص الشعري: ١٥٨

(٧٨) نحو النص: ١١١

(٧٩) التحرير والتنوير: ٣٩٧/٧، ٣٩٨

(٨٠) أسرار التكرار في القرآن: ١٥١

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم .

٢- الأساليب الإنشائية في النحو العربي. لعبد السلام هارون - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط ٣ - ١٤٠٢هـ /١٩٨١م .

٣- أسرار التكرار في القرآن المسمى: البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان. لتاج القراء محمود بن حمزة الكرماني - تحقيق عبد القادر أحمد عطا - دار الفضيلة .

٤- الأصوات اللغوية. د. إبراهيم أنيس - مكتبة الأنجلو المصرية - ط ٦ - ١٩٨٤م .

٥- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. لمصطفى صادق الرافعي - دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م .

٦- الإيضاح في علوم البلاغة. للخطيب القزويني - مطبعة محمد علي صبح - ١٩٨٢م .

٧- البحر المحيط. لأبي حيان الأندلسي - تحقيق الشيخين: عادل أحمد عبد الموجود، و علي محمد معوض - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

٨- البرهان في علوم القرآن. للزركشي - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - مكتبة دار التراث - القاهرة .

٩- البيان في روائع القرآن دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني. د. تمام حسان - عالم الكتب - ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.

١٠- التصوير الفني في القرآن. سيد قطب - دار الشروق .

١١- التعبير القرآني. د. فاضل صالح السامرائي - دار عمار - عمان - ط ٤ - ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م .

١٢- تفسير التحرير والتنوير. للشيخ محمد الطاهر بن عاشور - الدار التونسية للنشر .

١٣- التفسير الكبير. للإمام الفخر الرازي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ط ٣ .

١٤- جامع البيان عن تأويل آي القرآن. لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري - دار الفكر - ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م .

١٥- الجامع لأحكام القرآن. للقرطبي - دار إحياء التراث العربي - ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

١٦- حاشية الصبان على شرح الأشموني. للشيخ محمد بن علي الصبان الشافعي - تحقيق إبراهيم شمس الدين - دار الكتب العلمية - بيروت .

١٧- الخصائص. لابن جني - تحقيق محمد علي النجار - دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان .

١٨- دراسات قرآنية في جزء عم. د. محمود أحمد نحلة - دار المعرفة الجامعية - ١٩٨٨م .

١٩- دلالة الألفاظ. د. إبراهيم أنيس - مكتبة الأنجلو المصرية - ط ٥ - ١٩٨٤م .

٢٠- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. للآلوسي - دار الفكر - بيروت - ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

٢١- زاد المسير في علم التفسير. لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي - المكتب الإسلامي للطباعة والنشر .

٢٢- سر صناعة الإعراب. لابن جني - تحقيق د. حسن هنداوي دار القلم - دمشق - ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

٢٣- علم اللغة مقدمة للقارئ العربي. د. محمود السمران - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت .

٢٤- الكتاب. لسيبويه - تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون - مكتبة الخانجي بالقاهرة .

٢٥- لسان العرب. لابن منظور - دار إحياء التراث العربي - بيروت .

٢٦- لسانيات النص النظرية والتطبيق. ليندة قياس - مكتبة الآداب - القاهرة.

٢٧- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل. د. فاضل صالح السامرائي - دار عمار - عمان - ط٣ - ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م .

٢٨- المدخل إلى علم اللغة. د. رمضان عبد التواب - مكتبة الخانجي - القاهرة - ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

٢٩- معاني الأبنية في العربية. د. فاضل صالح السامرائي - دار عمار - عمان - ط٢ - ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م .

٣٠- معاني القرآن. للفراء - تحقيق محمد علي النجار - الدار المصرية للتأليف والترجمة .
٣١- مناهل العرفان في علوم القرآن. للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني - طبعة عيسى البابي الحلبي - القاهرة .
٣٢- نحو أجرومية للنص الشعري: دراسة في قصيدة جاهلية. د. سعد مصلوح - مجلة فصول - المجلد العاشر - العددان الأول والثاني - يوليو/أغسطس ١٩٩١م .
٣٣- نحو النص: اتجاه جديد في الدرس النحوي. د. أحمد عفيفي - مكتبة زهراء الشرق .
٣٤- نظرية علم النص: رؤية منهجية في بناء النص النثري. د. حسام أحمد فرج - مكتبة الآداب - القاهرة.